إنتشار اللغة العربية في أفريقيا جنوب الصحراء
خلال القرون ٤ - ٨ هـ / ١٠ - ١٦م

* د. دريد عبد القادر نوري

تقـــــديـــــم:-

أرتبطت اللغة العربية أرتباطا وثيقا بالإسلام، وعد العرب مادة الإسلام الأولى ولذلك نستطيع القول بأنه حيثما يوجد الإسلام توجد اللغة العربية ولو أستقرأنا ماكتب عن الإسلام وإنتشاره في أفريقيا جنوب الصحراء لوجدناه كثيرا. أما إنتشار اللغة العربية فقد جاءت أخباره في المصادر العربية القديمة مقتضبة بل نادرة، حتى لانكاد نجد في كل المصادر ما يكون فقرة واحدة مجتمعة. فكل ما جاء عبارة عن إشارات عامة وكلمات متناثرة تدل على الموضوع بشكل غير مقصود لأن الإسلام كان هو المعنى بنظر أولئك المؤرخين والجغرافيين العرب.

أما عناية المراجع العربية الحديثة والدوريات، فهي الأخرى قد إنصبت على دراسة الإسلام والهجرات العربية والعلاقات الأقتصادية والدينية بين العرب والسودان ونكاد لانجد سوى وريقات عن انتشار اللغة العربية إضافة إلى أن المادة المقدمة لم تفصل الكلام عن أسباب إنتشار اللغة العربية، كما لم تشر إلى وسائل وسبل إنتشارها.

وإستنادا لما تقدم فإن هذا البحث سيعرض للموضوع بعناية لمسائل مهمة تتعلق بأهمية اللغة العربية وتفوقها على اللغات الأفريقية من نواح عديدة، وسيهتم بتفصيل لسبل ووسائل وأسباب إنتشار اللغة العربية في المنطقة.

وفي الحقيقة أن دراسة هذا الموضوع في العصر الحاضر في غاية الأهمية من نواح عديدة بالإضافة إلى قلة المكتوب عنه في المصادر والمراجع. وأهميته قد جاءت ملحة لأسباب سياسية وحضارية نظرا لأن الإستعمار الأوربي يعمل جادا من أجل فصل هذه المنطقة عن الوطن العربي لغويا ثم بعد ذلك حضاريا من أجل استمرار إستعمارها.

---

* دكتور في كلية الآداب / قسم التأريخ / جامعة الموصل.

لقد كانت روابط الأخوة متينة بين شمال الصحراء وجنوبيا في أفريقيا في المدة الرصودة في البحث، لقد تسابق سكان المنطة الى شراء الكتب العربية وتعلم اللغة العربية حتى إن الجميع أخذوا يشعرون بالإنتماء الثقافي والسياسي المشترك فالمسلم أخو المسلم والعربي أصبح أخا للسوداني والأرض أصبحت جميعا وطن الإسلام وكانت اللغة العربية هي لغة الدولة والحكومات ولغة الدواوين والسجلات إضافة إلى كونها لغة الدين والحضارة في معظم دول أفريقيا جنوب الصحراء خلال مدة البحث.

وقد أستمرت الحالة بشكلها العام على نفس المنوال حتى مجيء الإستعمار البرتغالي بعد القرن ١٦م ومجيء الإستعمار الأوربي الحديث بعد القرن ١٩م حيث ركز المستعرون على الغاء اللغة العربية في البلاد التي إستعمروها وإشاعه اللغات الأوربية محلها لاسيما الفرنسية والأنكليزية.

لقد أصبح الأفريقي عموما يعرف عن تأريخ أوربا أكثر مما يعرفه عن تأريخ بلاده وحضارته لأنه أصبح يستقي معلوماته وثقافته من خلال لغة المستعمرين من غير أختيار منه لأنه أجبر على تعلمها وأستخدامها بعد أستعمار أرضه.

وأستطيع القول أنه لولا الأستعمار لكانت مساحة الوطن العربي في شمال أفريقيا تمتد في جنوب الصحراء مثلما عليه اليوم في شمال الصحراء وكان السبب الأول في هذه الأنكسارة وفي كسر ذلك الترابط بين العرب والأفارقة هم المستعمرين والأوربيين الذين نجحوا في ضرب اللغة الفرنسية في غرب أفريقيا وسادت اللغة الأنكليزية في وسط أفريقيا وشرقها.

ولذلك فإن دراسة تأريخ انتشار اللغة العربية في أفريقيا جنوب الصحراء محاولة جادة لإعادة الترابط بين العرب والأفارقة ومحاولة ثقافية لمحاربة مخططات الأستعمار الرامية إلى القضاء على اللغة العربية في أفريقيا والعمل على تشويه العلاقة العربية الأفريقية لأستمرار أستعمار المنطقة لذا فإن هذا البحث محاولة متواضعة ثقافية وطنية وسياسية لأبراز أهمية العرب في حياة أفريقيا الحرة.

د. دريد عبد القادر نوري

إنتشار اللغة العربية في أفريقيا جنوب الصحراء
خلال القرون ٤ - ٨ هـ / ١٠ - ١٦م

من الواضح إن أفريقيا جنوب الصحراء تعد لغويا من أشد المناطق تعقيدا في العالم ، و تتباين مناطقها تباينا كثيرا كما أشار إلى ذلك المؤرخ الأفريقي الحسن الوزان (١). ويقدر عدد اللغات المنتشرة فيها بحدود الثمانمئة لغة، صنفها بعض المختصين الى حوالي اثنتي عشرة أسرة (٢). ومن البديهي فإن اللغة المشتركة تفيد في تقوية الإحساس بالوحدة، ولذلك عمد سكان أفريقيا الى إتفاقهم على عدد من اللغات الأساسية للتفاهم المشترك. ومن أهم تلك اللغات: اللغة السودانية ولغة البانتو (٣) واللغة السواحيلية التي يتكلم بها سكان السواحل الشرقية لأفريقيا وكذلك لغة الهوسا المنتشرة عموما حول بحيرة تشاد في السودان الأوسط وقد أعتبرت هذه اللغات بمثابة الأمهات للغات الأخرى (٤).

وبعد القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي بدأت اللغة العربية تنتشر عموما في جنوب الصحراء في الخط السوداني (٥) الممتد من المحيط الأطلسي غربا وإلى البحر الأحمر شرقا إضافة إلى ساحل أفريقيا الشرقي وذلك لما تمتعت به من خصائص وامتيازات ايجابية إضافة إلى أنها لغة الدين الإسلامي ولغة الحضارة وقد كان العرب في بون شاسع عن حضارة السودان آنئذ. علما بأن السودان مجاورة للوطن العربي والعلاقات التاريخية قديمة بين الطرفين وكان العديد من تلك البلاد مواطن جيدة لهجرات عربية عديدة إضافة إلى القوافل التجارية التي كانت لاتنقطع عن المنطقة في عموم الأزمان بحكم المصالح التجارية المشتركة.

لقد تمتعت اللغة العربية بخصيصة الوضوح والمنطقية فلا أدل على ذلك من أنها لغة القرآن الكريم، وقد تميزت المرونة والسهولة في الهيمنة على لغات عديدة، كما تميزت بخصيصة الأختصار حيث يمكنها أن تعبر بالقليل عن الكثير، وقد أبقى على روعتها وخلودها الإسلام وقد وصفها السيرتوماس آرنولد بقوله: " لقد بلغت اللغة العربية حدا يفوق كل وصف من الغنى والجمال (وإذا ما تعلم الأفريقيون) هذه اللغة أصبحت لغة التخاطب

... وهي إلى ذلك لغة شريعة وقانون مكتوب.. " [٦].

أن السلوك الشخصي للعرب المسلمين الذين أستقروا جنوب الصحراء لأجل الهجرة أو التجارة قد جذب السودان اليهم، وكان ذلك السلوك يتسم " بالتواضع والصدق وبالأمانة وبقيم حضارية جذبت اليهم الأفارقة، ثم أنهم أختلطوا بذلك المجتمع وأمتزجوا به ولم ينفصلوا عنه وكانوا أصحاب ثقافة وحضارة وتقاليد أعلى مما وجدوه في تلك المجتمعات فتأثر الأفارقة بهذه الشخصية المسلمة الجديدة وقبلوا الإسلام ودخلوا فيه " [٧].

وهكذا أخذت اللغة العربية لها طريقا مميزا في القارة الأفريقية. ففي شرقي أفريقيا أخذ السكان هناك يتطلعون إلى تعلم اللغة العربية ويتكلمون بها " لما تتيحه لهم من آفاق واسعة في التبادل التجاري " [٨] وقد أخذت لغة القرآن الكريم تنافس اللغات المحلية ثم تغلبت على معظمها وخاصة في المناطق التي أنتشر فيها الإسلام وزاد فيها إختلاط العرب بالأفارقة [٩]. حيث كان الأسلام عنصرا مهما دفع القوم إلى تعلم اللغة العربية طواعية كما سنذكر ذلك تباعا. ولهذا دخلت نسب كبيرة من الألفاظ العربية من الربع الى الخمسين في اللغة السواحيلية، وتمثل الألفاظ العربية ثلاثين في المائة في اللغة البجاوية والبنداوي وغيرهما من اللغات [١٠].

ومنذ وقت مبكر وبحدود القرن ٦هـ / ١٢م واللغة العربية شائعة الإستعمال بين القبائل الكوشية كالأجاو والجالا والساهو إضافة إلى الجماعات التي كانت تسكن وادي النيل إلى الجنوب من مصر وكانت تسكنها قبل الإسلام شعوب غير عربية أصبحت بفضل افختلاط بالعرب والدخول بالإسلام تتكلم اللغة العربية وتكتب بها [١١].

وأهل كانم ـ برنو في السودان الأوسط أهتموا بالإقبال على الدين الإسلامي والإنتساب الى أنساب عربية، وكان يعني ذلك إهتماما خاصا بلغة الإسلام وهي العربية ولغة الأصول العربية التي إدعوا انهم ينتسبون إليها. لقد أصبحت اللغة العربية على ما يدر من دراسة النصوص المتوفرة وإبتداء من القرن ٦هـ/ ١٢م اللغة الرسمية هناك حيث كانت تصدر بها كل المنشورات الحكومية، وهي لغة الدواوين والسجلات الرسمية. ففي عهد السلطان عبد الله بكور الذي أستمرت ولايته من سنة ٥٧٢ ـ ٥٩٠هـ/ ١١٧٧ ـ ١١٩٤م

صدرت كل بيانات الدولة باللغة العربية [١٢].

وقد حفظ لنا القلقشندي الكتاب الذي أرسله سلطان كانم عثمان بن إدريس باللغة العربية للسلطان المملوكي الظاهر سيف الدين برقوق وهو يوضح بجلاء تام إنتشار اللغة العربية وقد بدا من خلاله أن اللغة العربية كانت اللغة الرسمية للدولة تكتب بها كل سجلاتها وكانت تلك الرسالة معبرة تماما عن مكانة الثقافة العربية الإسلامية وشيوعها في تلك البلاد [١٣].

ويبدو من دراسة النصوص التي أوردها المؤرخ الافريقي محمود كعت المتوفى عام ١٥٩٣م أن حكام كانم ـ برنو شجعوا العلوم العربية وبالخصوص الشرعية منها وقربوا الفقهاء والعلماء وكانوا قد أحاطوا أنفسهم بعدد من كتاب اللغة العربية وكانوا عازمين على نشر الإسلام واللغة العربية بين كل طبقات مجتمعهم [١٤]. وكان الخط الدارج عندهم هو الخط الكوفي المغربي وكان السطر يكتب الى جانب السطر [١٥].

وفي السودان الغربي يشير المؤرخ الافريقي السعدي إلى أن إنتشار الإسلام واللغة العربية أخذ يعم المنطقة وبحدود القرن ٥هـ/١١م حيث يعتقد أن (كنبرو) حاكم مدينة جني [١٦] أسلم ثم حذا حذوه كل شعبه بعد ان جمع الدعاة المسلمين الذين كانوا في مملكته والذين كان عددهم (٤٢٠٠ مسلم) [١٧].

والذي يبدو من الرواية السابقة ان المنطقة كانت قد عرفت الإسلام قبل ذلك التأريخ، وأن الدعاة المسلمين الذين كانوا يتحدثون باللغة العربية كانوا موجودين بالمنطقة منذ وقت مبكر سبقت القرن ٥هـ/١١م وان اعدادهم كانت كبيرة، ولذلك فإن تأثيرهم اللغوي كان واضحا في تلك المدة وكان من نتيجته سرعة إسلام شعب مدينة جني.

وفي بلاد غانا [١٨]. كان من الواضح أن اللغة العربية كانت شائعة تماما منذ القرن ٤هـ/١٠م لأن المئات من التجار العرب كانوا يستقرون هناك وقد ذكر العديد من المؤرخين أن المدينة كان فيها العديد من مشايخ العرب وتجارهم والكثير من الدعاة وكان قد سمح لهم بالتجمع في حي عربي إسلامي خاص بهم في المدينة بعيدا عن الحي الوثني وأن تأثيرهم على سكان المنطقة من السودان الوثنيين كان كبيرا على المستويين الديني واللغوي [١٩].

هذا وقد كان عادة حكام غانا الإعتماد على مستشارين عرب كانت مجالستهم لاتخلو منهم [٢٠]. وقد ذكر البكري أن تراجمة الملك الغاني وصاحب بيت ماله وأكثر وزرائه كانوا من العرب المسلمين [٢١]. علما بأن الرحالة أبن بطوطة شاهد في مدينة مالي العديد من الشبان السودان الذين كانوا يربطون أرجلهم بقيود ولايفكونها حتى يتمكنوا من حفظ القرآن الكريم [٢٢]. وفي هذا ما يدل بشكل واضح على التأثير العربي والإسلامي على السودان وما اسفر عنه من نقل للغة العربية بل والخط العربي الى جنوب الصحراء حيث تكتب الشعائر الدينية والمواثيق التجارية وحيث يسجل الحاكم ميزانيته [٢٣].

وهكذا فان تعدد اللغات وتعقيدها في أفريقيا جنوب الصحراء ومحبة السودان للعرب ودخولهم في الإسلام طواعية والعلاقات التأريخية القديمة وحسن الجوار وعمق الصلات التجارية والسبق الحضاري للعرب كانت أسبابا مهمة أدت الى إقبال السودان الى تعلم اللغة العربية، في حين كانت هناك سبل ووسائل عدة لعملية نقل اللغة العربية الى أفريقيا ونشرها شملت التجارة وأثر الإسلام وما يتعلق به من شعائر وعبادات (كالصلاة والحج وقراءة القرآن) وعلوم وشملت الهجرات العربية والرقيق وانتشار العلماء والدعاة إضافة الى الإقبال على المصادر العربية وإعتمادها. وفيما يلي توضيح لتلك الوسائل:-

أما أثر التجارة في نقل اللغة العربية الى بلاد السودان، فإن التجار العرب عرفوا طريقهم الى هناك منذ مدة مبكرة سبقت الإسلام فكان الكثير منهم قد وجد ضالته الى الرقيق، علما بأن التجار العرب كانوا مسيطرين على تجارة أفريقيا جنوب الصحراء وكانوا هم الوسطاء وحدهم في التجارة مع الأوربيين الذين لم يتمكنوا من تجارة الصحراء إلا نادرا.

وفي ظل الدولة الإسلامية وإنتشار الإسلام واستقراره في الصحراء وما يليها بعد القرن ٤هـ/١٠م أصبح العديد من المراكز الأفريقية أسواقا عامرة للتجارة والتجار العرب فهذا المؤرخ البكري مثلا يؤكد على أن الطريق التجاري بين سجلماسة وبلاد السودان الغربي مارا باغمات الى وادي درعة فاودغست هو الممر الذي شهد كثافة التواجد العربي، كما يؤكد على عظم النشاط التجاري في مدينة أودغست فيقول: " وسوقها عامرة الدهر كله

لايسمع الرجل فيها كلام جليسه لكثرة جمعه وضوضاء أهله وتبايعهم بالتبر " [٢٤].

وهذا النص يدل على من غير شك على عظم سعة التبادل التجاري بين العرب والسودان وعلى الأندماج الشديد بينهم حتى أن المؤرخ الوزان يشير إلى هذا الإندماج بقوله: " أنهم تعلموا لغاتهم " [٢٥]. ومن الواضح فإن كلا الطرفين (العرب والسودان) كان قد تأثر بلغة الطرف الآخر لأن التبادل التجاري يقتضي حدوث صفقات تجارية لاتتم إلا بالثقة المتبادلة والتفاهم باللغة المشتركة إضافة إلى دفع السعر أو الإتفاق عليه.

ويبدو أن التجار العرب وصلوا إلى معظم بلاد السودان الكبرى سواء أكانوا تجار أفرادا أم جماعات مهاجرة كانت التجارة إحدى أهم مهماتها. فقد كان بنو سليم مثلا ـ وهم قبائل عربية ـ يتنقلون عبر الصحراء ويذهبون كل سنة بتجارتهم إلى تمبكتو [٢٦] كما كانت الواحات بين مصر وليبيا تجارة مع كاوكاو [٢٧]. وعن بلاد البجة يذكر البكري " أن ملك البجة الحدارية يقال لها هجر يأتيها الناس من المسلمين للتجارات " [٢٨]. أما مدينة غانا فقد وصل تاثير التجار العرب فيها الى درجة الإستقلال الذاتي فقد عمدوا ـ وبعد حصول الموافقة من الملك الوثني ـ الى تأسيس حي عربي إسلامي لهم بجوار الحي الوثني بنوا فيه الدور والمساجد. وكان يفد الى هناك الأئمة والدعاة [٢٩].

وهناك الكثير من الروايات التأريخية التي توضح أن التجار العرب قاموا بتأسيس مستوطنات تجارية لهم في أفريقيا تحولت بعدئذ إلى مدن كان طابعها العام عربيا أسلاميا وكان من حولها الزنوج والسودان من المشركين والكفار الذين كانوا وبشكل قاطع متأثرين بالتجار العرب. فمدينة كوغه مثلا كان " بينها وبين غانة مسيرة خمسة عشر مرحلة أهلها مسلمون وحواليها المشركون " [٣٠]. كذلك " مدينة غيار ومدينة برسني يسكنها المسلمون وما حولها مشركون " [٣١]. علما إذا مروا من جوار قرية وثنية يخرج هؤلاء لأستقبالهم حيث يعمد التجار العرب الى أكرامهم [٣٢].

وهكذا فإن المكانة التي تمتع بها التجار العرب إنطلقت من الأخلاق الرفيعة التي حملوها معهم بفضل إسلامهم، إضافة الى حاجة السودان اليهم لأنهم كانوا يجلبون لهم مستلزمات حياتهم الضرورية مما سهل عملية التأثير الحضاري الذي كانت اللغة العربية

وسيلة الساسية، حيث أخذت لغة القرآن هذه تسري على ألسن القوم وتنساب في قلوبهم ثم أخذت تتغلب على لغاتهم المحلية أو تخالطها لتنشأ لغة جديدة هي مزيج من اللغة العربية واللهجات السودانية المحلية كاللغة السواحيلية المشار اليها من قبل.

وبعد التجارة والتجار، من حيث التسلسل الزمني، يأتي (الإسلام) فقد كان له الأثر البالغ في نشر اللغة العربية في أفريقيا جنوب الصحراء ضمن وسائله المتعددة التي كانت لتتم إلا باللغة العربية فالصلاة والحج وقراءة القرآن الكريم وحضور دروس الفقه والعقيدة في المساجد. كل تلك الأمور كانت اللغة العربية تلازمها حيث " اصبح المسجد الجيد البناء والنظيف بما فيه من آذان للصلاة خمس مرات في اليوم .. وأمام وصلاة جمعة، مركزا للقرية بدلا من دار عبادة الأوثان .. وبلغت اللغة العربية التي تكتب بها الكتب الدينية الإسلامية حدا يفوق كل وصف " (٣٣).

وبمعنى آخر فإن قبول السودان للإسلام معناه الإعتراف باللغة العربية ومحاولة تعلمها والنطق بها، حيث لايتم فهم الإسلام إلا بها وكانت دار الإسلام هي المسجد الذي أصبح مركز إشعاع لتعليم اللغة العربية إضافة إلى تعلم الإسلام. إن صلاة الجمعة وهي ممارسة مهمة في الإسلام يتم فيها إلقاء خطبة باللغة العربية تترجم من قبل الخطيب الى اللغة المحلية بشكل ملخص وخاصة اذا كان الخطيب من علماء السودان. وبذلك تكون الخطبة وإقامة صلاة الجمعة بابا مهما لنشر اللغة العربية بين القوم. وقد أشار المؤرخون العرب والسودان الى عظم أهمية المسجد في هذا الجانب علما بأن المساجد كانت تنتشر في كل مكان من أرض السودان يوجد فيها عرب ومسلمون.

ففي القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي كان يوجد في غانه (المدينة) وحدها إثنا عشر مسجدا ولها جميعا الأئمة والمؤذنون والفقهاء وحماة العلم، وهم جميعا يتكلمون العربية ويدرسون بها (٣٤). وعن مدينة مالي يقول الوزان " وبها مساجد كثيرة وائمة " (٣٥) وأما دولة الصنغاي فقد كان سلاطينها يتسابقون لبناء المدارس لتكون مصدرا مهما لتعليم الإسلام واللغة العربية ولتخريج طبقة مثقفة من الطلبة السودانيين لديهم معرفة تامة باللغة العربية التي هي لغة الثقافة والحضارة والدين آنذاك (٣٦). وقد أشار

المؤرخ الأفريقي السعدي إلى أن الفقيه أحمد بن عمر بن محمد كان فقيها لغويا نحويا عروضيا محصلا وكانت له عدة مؤلفات في اللغة العربية ويقال إنه ترك سبعمائة مجلد [٣٧].

وقد أشار السعدي أيضا إلى عدد كبير من السودان كانت لهم إهتمامات باللغة العربية وتدريسها منهم الشيخ محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري التمبكتي الذي جاءه السعدي يوما يطلب منه كتابا في النحو ففتش في خزانته وأعطاه كل ما ظفر به من كتب اللغة والنحو. وقد أخذ علمه من الفقيهين الصالحين والده وخاله [٣٨].

وفي مناطق سودانية كثيرة كان السودان يستعينون بالعلماء العرب لتعليمهم اللغة العربية إذ لم يكن في أهل المنطقة من يجيدها ويتقنها [٣٩]. وكل تلك العملية كانت تتم بالطرق السلمية والإقبال الطوعي من قبل السودان على العربية وفنونها التي وجدوا فيها حياتهم ووحدتهم وحضارتهم ودينهم.

أما الحج فلم يكن بأقل تأثيرا في نشر اللغة العربية من المساجد على أولئك الذين كانوا يقطعون آلاف الكيلومترات مارين ببلاد عربية إسلامية ويبيتون في كل ليلة في مساجدها وهناك يختلطون بالعرب ويصلون معهم ويسمعون للخطب والمواعظ على طول الطرق التي كانوا يسلكونها في كل مدن شمال أفريقيا والحجاز، وكانوا يحجون عادة باعداد كبيرة وبرفقة قادتهم.

وكأمثلة على قوافل الحج تلك ودورها في نشر اللغة العربية بين الحجيج السودان، فإن قافلة للحج كانت قد خرجت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م من مدينة نياني عاصمة دولة مالي الإسلامية في السودان الغربي بزعامة السلطان منسا على الذي زار معظم دول شمال أفريقيا ودخل مصر على عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البند قداري [٤٠] وكان وقافلته أثناء ذهابهم الى مكة المكرمة وأثناء عودتهم في تداخل حقيقي مع العرب ولغتهم [٤١]. غير أن أشهر مواكب الحج السوداني المشهورة الموكب الذي قام به السلطان المالي(منسا موسى) سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٤م الذي خرج من ولاته الى توات فسجلماسة فالقاهرة ثم الحجاز [٤٢].

وقد قيل عن موكب السلطان موسى الكثير من الاهتمام بالإسلام والعرب والتداخل معهم والإهتمام باللغة العربية فقد خرج معه للحج ستون ألف جندي [٤٣] وقبل ثمانية آلآف [٤٤] وبصحبة خمسمائة عبد مع عدد كبير من الجواري لخدمة القافلة.

ورغم ما قيل عن الموكب السابق من مبالغات في عدد الذين خرجوا للحج رفقة السلطان غير أنها تدل بشكل قاطع على الاعداد وقد كان من غير شك الكثير منهم في تماس وتداخل حقيقي مع العرب ولغتهم لأن موسم الحج يكون فيه إتمام الشعائر الدينية باللغة العربية وفيه تجارة أباح الإسلام القيام بها رفقة الحج ليتمكن الحاج من سد نفقات الطريق والحصول على الربح الحلال لشراء الهدايا للأهل والأصحاب. وفي كل ذلك احتكاك باللغة العربية. علما بأن السلطان موسى كان من جملة السلاطين السودان الذين كانوا يجيدون اللغة العربية [٤٥].

ومن الواضح أن العلاقة الثقافية تحسنت كثيرا مع مصر والحجاز بفعل قوافل المستمرة على مرور الأعوام فكان طلاب العلم من مختلف دول أفريقيا جنوب الصحراء يفدون الى القاهرة والحجاز لتلقي علوم اللغة والحديث والقرآن وكان لابد من تعلم اللغة العربية لأتمام مهام تخرجهم ومما يذكر أن القاهرة قد ضمت جالية كبيرة سودانية من طلاب العلم ومن الفقراء قدرت بنحو ثلاثة آلآف نسمة وكانت تلك الجالية محاطة برعاية سلاطين مصر من المماليك وبرعاية سلاطين السودان الذين كانوا يوقفون أموالا طائلة ومدرسين لأجل تدريس ابنائهم وقد ذكر القلقشندي أن طائفة من التكارة كانوا يرسلون الأموال سنويا الى القاضي (علم الدين بن رشيق) بالقاهرة لأجل بناء مدرسة مالكية تكون منزلا للحجاج التكرور عند مرورهم بالقاهرة. ومحلا لتلقي علوم المالكية يدرس فيها طلاب السودان على نفقتهم الخاصة [٤٦]. علما بأن السلطان موسى ـ المار ذكره ـ إشترى أثناء إقامته في مكة المكرمة قطعة أرض هناك لتكون مأوى للحجاج السودانيين [٤٧].

ومن العلماء السودان الذين تعلموا اللغة العربية في مصر والحجاز العلم محمد بن أحمد التازخني الذي كان محدثا معروفا درس على العديد من الصلحاء العرب واجازه في مكة الشيخ أبو البركات النويري والشيخ أبو الطيب البسني وغيرهم ثم رجع الى السودان

وهناك أخذ يدرس في العديد من المناطق السودانية اللغة العربية والعلوم الشرعية [٤٨]. ومنهم أيضا فقيه تمبكتو جد القاضي احمد بن ابي بكر وقد تولى القضاء في مدينة نياني عاصمة دولة مالي بحدود سنة ٦٨٠هـ وكان من جملة ما شهر به أنه كان يعلم الناس قراءة القرآن الكريم باللغة العربية ويأمر طلابه بقراءة نصف حزب من القرآن الكريم بعد صلاة الصبح والنصف الآخر بعد صلاة العشاء [٤٩]. وتلك القراءات كانت تقوي - من غير شك - اللغة العربية في نفوس القوم.

ومن الطبيعي أن يرافق بناء المساجد والتعليم في بلاد السودان وتخريج الطلاب نشاط متزايد للإهتمام بالكتب والمصادر العربية وخاصة تلك التي لها علاقة بمذهب القوم ومعتقدهم ككتب المالكية فقد شاع المذهب المالكي هناك [٥٠]. وقد أشار المؤرخ الأفريقي الوزان إلى إقبال السودان على شراء الكتب المخطوطة التي كانت تأتي من شمال أفريقيا وكان القوم يعمدون إلى عمل ملخصات لها باللغة العربية يوزعونها على طلابهم [٥١].

وفي هذا الصدد يشير أبن بطوطة في رحلته الى السودان الغربي في نهاية القرن الثامن الهجري إلى إنه زار إحدى مدن السودان الغربي - ويدعى أنه نسي أسم المدينة - فإلتقى بأميرها ويذكر عنه أنه كان فاضلا يسمى فربا سليمان كان معه فقيه يكتب له باللغة العربية وإنه وجد في داره كتاب المدهش لأبن الجوزي جاءته بالغذاء فتاة عربية دمشقية تحدثت مع أبن بطوطة باللغة العربية وقد عجب من ذلك أشد العجب [٥٢]. ويبدو أن الأمير فربا سليمان قد جلبها إلى بلاده كزوجة ولتعليم أهل بيته اللغة العربية لأجل معرفة دين الإسلام لأن الرجل كان حاجا ومن أهل الصلاح والدين والشجاعة كما وصفه أبن بطوطة[٥٣].

ومن السبل الأخرى المهمة التي عملت على نشر اللغة العربية في بلاد السودان (الهجرات العربية) العديدة التي استقرت في مناطق عدة جنوب الصحراء وفي الساحل الشرقي لأفريقيا. وكانت أولى تلك الهجرات هي التي حدثت بعد ظهور الإسلام عندما عذب المشركون في مكة المسلمين فاضطروهم إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة بقيادة جعفر بن أبي طالب ومصعب بن عمير ثم أعقبت ذلك هجرة ثانية لفوج جديد من المسلمين وقد قدرت

المصادر العربية مجموع المهاجرين بأكثر من مائة عربي مسلم بقوا في بلاد الحبشة حوالي ستة عشر عاما [٥٤]، وكانوا في إزدياد متواصل. ومهما تكن الآراء حول تلك الهجرة وما قيل عنها فهي تمثل رحيل عدد لابأس به من العرب إلى أرض الحبشة كانوا هناك يتكلمون اللغة العربية وقد تزوج بعضهم بالحبشيات وأثروا من غير شك في إعلان اللغة العربية هناك.

ومن الواضح أن الهجرات العربية قد توالت إلى الحبشة وإلى مختلف أنحاء أفريقيا وغربها وكانت بأعداد كبيرة جدا حملت معها نقلا حيا للغة العربية بأساليب شتى. ففي جنوب بلاد السودان الشرقي بعد القرن الثاني للهجرة تدفقت قبائل جهينة وبنى العباس [٥٥] وتمكن هؤلاء هناك من تأسيس مدينة عربية لهم سميت بلغة القوم بمدينة أربجي تقع على الضفة الغربية للنيل الأزرق [٥٦]. وقد هاجرت كما يبدو وفيما أشار اليه القلقشندي اعداد كبيرة من القبائل القحطانية والقبائل العدنانية في القرون الثلاثة الأولى للهجرة في العمق السوداني كقبائل جهينة وكنده والأزد وربيعة وأفخاذها ولاسيما (بنو هلال ومضر وهوزان) [٥٧]. وكان من نتيجة تلك الهجرات التصاهر والإمتزاج العربي بالسودان مما كان نتائجه المهمة تعريب المنطقة في جو التفوق السياسي والحضاري للعرب والسلوك الإسلامي الشخصي الذي مارسه المهاجرون العرب في التعامل مع الأفارقة [٥٨].

وفي السودان الغربي يشير البكري الى تواجد عربي يرجع الى القرن الأول والثاني للهجرة ففي غانة كان ثمة " قوم يسمون بالهنيهنين من ذرية الجيش الذي كان بنو أمية قد أرسلوه الى غانة في صدر الإسلام " [٥٩]. وفي كانم يزعم أن هناك قوما من بني أمية صاروا إليهم عند محنتهم بالعباسيين [٦٠]. ثم توالى إلى أفريقيا جنوب الصحراء في السنوات التالية العديد من الموجات العربية تحت ما يسمى بـ (ظاهرة الإلتجاء السياسي) والضغط العسكري إضافة الى الأسباب الأقتصادية. وقد أشاعت تلك المجموعات أستعمال اللغة العربية بشكل كبير وخاصة حول بحيرة تشاد وفي الساحل الشرقي لأفريقيا حيث تبوأ العرب مكانة كبيرة في المجتمع الأفريقي وأصبح منهم حكام أثروا في تعريب تلك البلاد[٦١].

وأخيرا لاننسى الرقيق فقد كانوا سبيلا لنقل اللغة العربيـة ونشـرها فـي أفريقيـا لأن العرب عاملوهم المعاملة الحسنة والإنسانية في كثير من الأحيان من الخلق الإسلامي القويـم حيث إن الإنسان " ليعجز أحيانا أن يميزهم عن أسيادهم إذ يبيح هؤلاء لهـم أن يقلدوهـم فـي اللباس وفي غيره من شؤون العيش " (٦٢).

ولذلـك أندفـع الرقيـق الـى اعتنـاق الإسـلام ثـم فـي تعلـم اللغـة العربيـة التـي كـانوا يتسابقون في معرفتها لأجل دينهم الجديد أو لتمشية أمور حياتهم وهناك العديد من الروايـات التأريخية التي تصور العديد من العبيد المسرورين بعبوديتهم لأنه عرفوا من خـلال الإسـلام وتعلموا اللغة العربية التي بواسطتها نقلوا الى بلادهم الدين الإسلامي وأصبحت لهـم مكانـة كبيرة في بلادهم (٦٣).

لقد جلب العرب الرقيق من أسـواق كثيرة كـانت تفـاقم فـي منـاطق عـدة مـن بـلاد أفريقيا جنوب الصحراء. وكان السودان أنفسهم يجمعونهم فيها بوسائل عدة (٦٤). من الشراء أو الحروب في حين كان البعض يعمد الى بيع أبنائه تخلصا مما كان يعانيه من الفقر أو مـا يواجهه من الموت بفعل الحيوانـات المفترسـة أو الأمـراض أو للحصـول فـي مقـابلهم علـى بعض السلع الأساسية (٦٥).

ولما كان العبيد ينتقلون الى البلاد العربية فـإنهم كـانوا يحصلـون علـى العديـد مـن الأمتيازات التي كانوا يفتقدونها في بلادهم وهـي الأمـان والـرزق المسـتمر وسـلامة العيـش إضافة الى الإفادة من الثقافـة العربيـة والإسـلام ممـا يجعلهـم بعـد تحريرهـم وعودتهـم الـى وطنهم يصبحون وكأنهم قد تخرجوا من مدرسة حضارية يكـون فيهـا العبـد سـيدا فـي قومـه إماما لجامع أو مدرسا في مدرسة أو كاتبا عند تاجر أو مستشار لحاكم.

المصـــــــــــادر:-

١ ـ الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت:٥٦٠هـ).

نزهة المشتاق في أختراق الآفاق ح١ (روما:١٩٧٠).

٢ ـ أبن بطوطة، أبو عبد الله اللواتي الطنجي

تحفة النظار في غرائب الأمطار وعجائب الأقطار (بيروت:١٩٦٤).

٣ ـ إبن حوقل، أبو القاسم اللواتي الطنجي

كتاب صورة الأرض (ليدن:١٩٣٨).

٤ ـ أبن خلدون، عبد الرحمن (ت:٨٠٨هـ)

العبر وديوان المبتدأ والخبر (دار الكتاب اللبناني:١٩٥٩).

٥ ـ أبن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت:٨٠٧هـ)

تأريخ أبن الفرات (البصرة:١٩٧٠).

٦ ـ أبن هشام، أبو محمد عبد الملك الحميري (ت:٢١٨هـ)

السيرة النبوية (القاهرة:١٩٥٥).

٧ ـ البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد (ت٤٨٧هـ)

المغرب في ذكر أفريقيا والمغرب، نشره أندرو (الجزائر:١٩٨٧).

٨ ـ الحلبي، علي بن برهان الدين (ت:١٠٤٤هـ)

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون (بيروت:١٩٨٠).

٩ ـ الحميري، ابو عبد الله محمد بن عبد المنعم

الروض المعطار في خبر الأقطار (بيروت:١٩٧٥).

١٠ ـ الزياتي، الحسن بن محمد الوزان المسمى بـ ليون الأفريقي

كتاب وصف افريقيا (الرياض:١٣٩٩هـ).

١١ ـ السعدي، عبد الرحمن بن عبدالله بن عوان (ت:٦٥٥هـ)

تأريخ السودان نشر هوداس (باريس: ١٩٦٤).

١٢ ـ القلقشندي، أبو العباس بن علي (ت:٨٢١هـ)

أ ـ صبح الأعشى في صناعة الأنشا نسخة مصورة عن النسخة الأميرية (القاهرة: د/ت).

ب ـ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب.

١٣ ـ كعت، محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت(ت:١٥٩٣م)

تأريخ الفتـــاش في أخبار البلدان والجيوش وأكبـار الناس وذكرى وقائـع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار. نشره هوامس ودولافوس (باريس:١٩١٣).

١٤ ـ مجهول المؤلف، كاتب مراكش من القرن السادس الهجري /١٢م

كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار (الإسكندرية:١٩٥٨).

١٥ ـ القريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت:٨٤٥هـ)

أ ـ الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة:١٩٥٥).

ب ـ المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والإثار (بولاق:١٢٧٠هـ).

١٦ ـ محمد النور، ودضيف الله

كتاب الطبقات في الأوليـاء والصالحيـــن والعلماء والشعراء في الـسودان، تحقيق يوسف فضل حسن (الخرطوم:١٩٧١).

المـــــراجـــــع:-

١ ـ آرنولد، توماس

الدعوة الى الإسلام، ترجمة د. حسن أبراهيم (القاهرة: ١٩٥٧).

٢ ـ دافدسن، بازل

أفريقيا تحت أضواء جديدة، (بيروت: ١٩٦٣).

٣ ـ زبادية، عبد القادر

مملكة الصنغاي في عهد الأسبقين (الجزائر:د/ت).

٤ ـ سعودي، د. محمد عبد الغني

قضايا أفريقية، سلسلة عالم المعرفة (الكويت:١٩٨٠).

٥ ـ طرخان، أبراهيم علي

دولـــــة مالـــــي الإسلاميـــــة دراسات في التاريخ القومـــــي الأفريقـــي (القاهرة:١٩٧٣).

٦ ـ النقيرة، محمد عبد الله

انتشار الإسلام في شرق أفريقيا ومناهضة الغرب له (الرياض:١٩٨٢).

٧ ـ نوري، دريد عبد القادر

أ ـ تأريخ الإسلام في أفريقية جنوب الصحراء (الموصل:١٩٨٥).

ب ـ دور الحج في ربط بلاد السودان بالوطن العربي رسالة الخليج العربي العدد التاسع (الرياض ١٩٨٣).

٨ ـ محاضرات الموسم الثقافي لجامعة الإمارات العربية المتحدة ، بحث الإسلام في أفريقيا المعاصرة الدكتور الطبيب زين العابدين أبو ظبي (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

9 - Alexander (P.)

An Introdution to Languages and Language in Africa (London: 1972).

10 - Palmer (H.R.)

The Brona Sahara and Sudan (London: 1936).

11 - Trimingham (J.Spencer).

Islam in Sudan (Oxfford: 1965)

الهـــوامـــش:-

(١) الحسن بن محمد الوزان الزياتي، وصف أفريقيا (الرياض: ١٣٩٩هـ) : ص٣٤.

(٢) أنظر: جرينبرج، أفريقيا كمنطقة لغوية، بحث منشـور في كتاب: الثقافة الأفريقية، تحرير وليم باسكوم (بيروت: ١٩٦٦)، ص ٤١ ـ ٤٥.

(٣) لغة البانتو: وهي اللغة التي يتكلم بها السكان جنوب خط الإستواء والتـي تعد الجامعة لحوالي (٣٥٠لغة) تنتشر هناك، وتتشابه جميعا في مفردات وقواعد لغوية عديدة، ويظهر أنها مشتقة أصلا من لغة واحدة كان يطلق عليها لغة البانتو وكلمة البانتو تعني بلغة القوم (الناس). أنظر محمد عبد الغني سعودي، قضايا أفريقية ،سلسلة عالم المعرفة، عدد /٣٤ (الكويت: ١٩٨٠)، ص١٤٠.

(٤) أنظر: نعيم قداح، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام (القاهرة: و/ت)، ص٢٢.

(٥) أطلق العرب مصطلح بلاد السودان علـى كل الأرض الممتدة جنوب الصحراء فقالوا (السودان) علـى الأقوام التي تسكن هناك وعلى بلادهم قالوا (بلاد السودان) حيث أستوحوا لون البشرة في تلك التسمية.

أنظر: دريد عبد القادر نوري، تاريخ الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء (مطبعة جامعة الموصل: ١٩٨٥)، ص ٢٩.

(٦) توماس آرنولد، الدعوة الى الإسلام، (القاهرة: ١٩٥٧) ص٣٩٨.

(٧) الطيب زين العابدين، الإسلام في أفريقيا المعاصرة، بحث منشور في محـاضرات الموسم الثقـافي لجامعة الإمارات العربية المتحدة (أبو ظبي: ١٩٨٥)، ٣٧٠.

(٨) محمد عبد الله النقيرة، إنتشار الإسلام في شرقي أفريقية (الرياض: ١٩٨٢)، ص٢٨٢.

(٩) المرجع السابق، ص٢٨٢، حسن أحمد محمود، الإسـلام والثقافة العربيـة فـي أفريقيـا (القـاهرة: ١٩٥٨)، ص٤٧.

(١٠) محمود، الإسلام والثقافة العربية، ص٥١.

(١١) زين العابدين، السابق، ص ٣٧١.

(١٢) Palmar, R. : The Bornu Sahara, P.P. 18 - 19.

(١٣) أنظر: نص الكتاب الذي أرسله سلطان البرنو الى سلطان مصر المملوكي باللغة العربية القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الأنشا (القاهرة: ١٩١٥): ٨/ ١١٦.

(١٤) محمود كعت، تاريخ الفتاش (باريس ١٩١٣)، ص١١٤، ص١٤٣.

(١٥) أنظر: القلقشندي، السابق: ٥/٢٩٨.

(١٦) تأسست جني سنة ٤٣٥هـ/١٠٣٣م وتقع على مسافة ٦٠كلم الى الجنوب الغربي من تمبكتو وهي من المراكز التجارية المهمة. أنظر: دريد، تأريخ الإسلام في أفريقيا، ص٢٨٦.

(١٧) عبد الرحمن السعدي، تأريخ السودان (باريس : ١٩٦٤)، ص١٢.

(١٨) غانا: مدينة تقع على حافتي نهر النيجر قامت فيها أول الكيانات السياسية في السودان الغربي وتوالى حكمها (٤٤ملكا) حتى سنة ١٥٣هـ/٧٧٠م ثم تولت حكمها أسرة جديدة أستمرت تحكم حتى سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٦م التي خضعت فيها للمرابطين وأقيمت فيها دولة إسلامية، أنظر: دريد، تأريخ الإسلام في أفريقيا، ص١٤٦، ص٢٩٣.

(١٩) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار (لبنان: ١٩٧٥)، ص٤٢٦. القلقشندي، السابق:٥/٢٨٤.

(٢٠) دريد، المرجع السابق، ص٩٤.

(٢١) البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب،(الجزائر: ١٩٨٧)، ص١٧٥.

(٢٢) أبن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار (بيروت: ١٩٦٤)، ص٦٩٠.

(٢٣) Alexander, An Introduction to Languages (London: 1972) P. ,53, 97.

(٢٤) البكري، السابق، ص ١٥٨.

(٢٥) الزياتي، السابق، ص٣٤.

(٢٦) الزياتي، المصدر السابق، ص٤٤.

(٢٧) السابق، ص ١٦١.

(٢٨) البكري، المغرب، ص١٥٨.

(٢٩) أنظر: البكري، السابق، ص١٧٥، مجهول الإستبصار في عجائب الأمصار، ص٢٢٠، أبن حوقل، صورة الأرض (ليدن: ١٩٣٨)، ص٩٨.

(٣٠) البكري، السابق، ص١٧٩.

(٣١) السابق، ص١٧٧.

(٣٢) نفسه.

(٣٣) توماس أرنولد. الدعوة الى الإسلام، ص ٣٩٨.

(٣٤) البكري، المغرب، ص١٧٥.

(٣٥) الوزان، وصف أفريقيا، ص ١٦٤.

(٣٦) السعدي، تاريخ السودان، ص١٦،٧.

(٣٧) السابق، ص٣٧.

(٣٨) السعدي، تاريخ، ص٤٤.

(٣٩) الوزان، وصف أفريقيا، ص ١٦١.

(٤٠) الظاهر بيبرس: أحد سلاطين المماليك في مصر حكم ما بين سنتي ٦٥٨ ـ ٦٧٦ هـ وكان مملوكا قوبا أنظر للمزيد عنه: ابن الفرات، التأريخ (بيروت: ١٩٢٤): ٨٦/٧.

(٤١) المعزين، الذهب المسبوك، ص١١٠ ـ ١١١.

(٤٢) أنظر: أبراهيم طرخان، دولة مالي الإسلامية (القاهرة: ١٩٧٣)، ص٨٠.

(٤٣) تاريخ، ص٧ ،ن.

(٤٤) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص٤.

(٤٥) أنظر عن معرفة السلطان موسى وايجادته للغة العربية: القلقشندي، صبح الأعشى: ٥/ ٤٦٠.

(٤٦) أنظر: صبح الأعشى: ٥ /٢٨١، القريزي، المواعظ والأعتبار: ٢ / ٣٦٥.

(٤٧) السعدي، تاريخ، ص ٨٣، زبادية، مملكة صنغاي، ص٣٧.

(٤٨) السعدي، السابق، ص٤٠.

(٤٩) السعدي، السابق، ص٢٧.

(٥٠) انظر: العمري، مسالك الأبصار، ص ٦٠.

(٥١) راجع وصف أفريقيا، ص٥٤٠.

(٥٢) رحلة أبن بطوطة، ص٦٩٥.

(٥٣) نفسه.

(٥٤) للمزيد عن هجرة المسلمين الى الحبشة أنظر: أبن هشام، السيرة النبوية (القاهرة: ١٩٥٥): ٣٦٤/١ ـ ٣٦٩ الحلبي، السيرة الحلبية (بيروت: ١٩٨٠): ٢ /٣، ٢٧.

(٥٥) أنظر: ابن خلدون، التأريخ (بيروت: ١٩٦١): ٤٢٩/٥.

(٥٦) ردصيف الله، الطبقات في خصوص الأوليلء والعلماء في السودان (الخرطوم: ١٩٧٠)، ص٤٠.

(٥٧) لتفصيل الحديث عن القبائل العربية التي هاجرت الى شرقي أفريقيا.

أنظر: القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (القاهرة: ١٩٥٦) ص٨٧ ـ ١٨٠ ــ ١٨٩ ـ ٢٠٥ ـ ٢٢١ ـ ٢٤٨.

(٥٨) Trimingham, Islam in Sudan (Oxford: 1965), P.,85.

(٥٩) البكري، المغرب، ص١٧١.

(٦٠) نفسه، ص١١.

(٦١) للمزيد عن أثر الهجرات العربية في نشر الثقافة العربية أنظر: النقيرة، أنتشار الإسلام، ص ٨١ - ٩٥.

(٦٢) بازل دافدسن، أفريقيا تحت اضواء جديدة (بيروت: ١٩٦١)، ص١٧.

(٦٣) أنظر: آرنولد، الدعوة الى الإسلام، ص٢٨٥، النقيرة، أنتشار الإسلام، ص١٢٢.

(٦٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، (روما: ١٩٧٠): ١٩/١، أبن خلدون، التأريخ: ٥٤/٥.

(٦٥) أنظر: دريد، تاريخ الإسلام في أفريقيا، ص ٢١٨.